

# شاعرية المكان

## من خلال قصيدة فصل من كتاب الذكريات

### للهاشمي بلوزة

بقلم: سُوف عبيد

أضحى الشَّعر العربي الجديد منذ ما يزيد عن النصف قرن تقريباً يُمثل ظاهرة تجاوزت الطفرة لتؤكد حضورها لدى ثلاثة أجيال متلاحقة وعلى مدى أغلب البلاد العربية وإذا كان الجيل الأوَّل في هذا الشعر قد أرسى الأسس وذلك إِعتماداً على تحرُّره من التفعيلة والقافية في المبنى ثم بتضمين الأسطورة وتصوير الواقع في المعنى، فإنَّ الجيل الثاني الذي إنخرط في المسلك التجديدي قد أوغل أكثر في التحرر من العروض وعبَّر بصفة أوضح عن المعاناة في أبعادها الذاتية وضمن تحدياتها اليوميَّة مما أكسب الجيل الأخير مرجعيات عديدة ومتنوعة قد أثرت ذاكرته الإبداعية بحيث أنه لم ينطلق من فراغ أو من تردّد لذلك فإنَّ النصوص الأخيرة لهذا الجيل الذي ظهرت كتاباته مع أواخر القرن العشرين يبدو الكثير منها على غاية من الجِدَّة والإضافة ولا عجب من ذلك فقد وجد مسالك التجديد مُعبَّدة والأبواب مفتوحة إضافة إلى الإرهاصات الكبرى التي حدثت في الأوطان العربية وفي العالم تلك التي فتح عيونه عليها ممَّا أذكت فيه الحسَّ والأسئلة وأجَّجت في وجدانه جمرة الإبداع... ذلك أنَّ الفنَّ يتطوَّر بالتواصل والتراكم حتَّى إذا بلغ حدود التكرار والتقليد طمح إلى التجاوز والتجديد... تلك هي سُنَّة جميع الفنون عبر العصور

من أسئلة هذا الشَّعر الجديد سؤال - القراءة - فالقراءة وحدها تقف على خباياه وخفاياه ومدلولاته وأبعاده لأنه شعر قائم أساساً على الإِسْتيعاب والتمعُّن وليس على السَّماع والإنفعال إذَّهما من أهمَّ خصائص التقبُّل في الشَّعر العمودي

لقد آن الأوان أن نقرأ هذا الشَّعر الجديد في أريحية وتمهَّل وتمعَّن بعد أن إستطاع الكثير ممَّا أن يتجاوز مرحلة الرفض والشك ليقتنع أن النص الشعريَّ البديع لا يكتسب

شرعية إبداعه من إستناده على وفائه لذوق السّلف من ناحية وكذلك لا يفرض وجوده بإعلانه لواء البحث عن الجديد فحسب وإنما النص الشعري ينبغي أن يكون مُقنعا في نوعه مُسيطرًا على أدواته مهما كانت أسس مبناه سواء كانت ضاربة في القديم أو هي متوجهة إلى الحديث غير أنّ المضمون أخيرا يظل هو المُحدّد لمدى مصداقية ذلك النص

من بين تلك النصوص الشعريّة التي ترنو إلى منحى التجديد قصيدة (فصل من كتاب الذكريات) للشاعر التونسي محمد الهاشمي بلوزة الذي عُرف بكتاباتهِ التّقديّة أيضا

ومن دوافع وقوفنا عند هذه القصيدة درجة الصدق الواضحة فيها ومطابقتها لتفاصيل مرحلة من مراحل الشاعر ذلك أنّ الصدق عندي أحد أهمّ شرعية النص الإبداعي الذي لا تزيده المكابدة والمعاناة إلا وصولا إلى الآخر

إنّ الشعر ليس صناعة موضوعية ومحايدة بل هو تعبير عن شهادة في الحياة ببصمات حقيقية كي يصل إلى ذروة التأثير بفضل صدقه ومصداقيته إن قصيدة (فصل من كتاب الذكريات) إسترجاع لأمكنة مزدحمة بالأشجان في وجدان الشاعر وإستنتاج حميمي لصور قد عاشها في الماضي ممّا يجعلها إستحضارا لعهد من حياة الشاعر فات وإنقضى لكنه ما يزال يفعل فعله في الحاضر رغم فوات الحدثان ومرور الزمان

إنّ القصيدة من هذا الباب يمكن أن تُصنّف ضمن غرض الحنين إلى الأوطان ورتاء البلدان هذا الغرض الذي برع فيه الشعراء المغاربة منذ القديم مثل علي الحصري وابن حمديس وأبي البقاء الرندي وغيرهم

وهي إضافة إلى ذلك محملة بتفاصيل السيرة الذاتية والغربة والحنين والإخوانيات ورتاء الأصدقاء وهي في مداها البعيد تعبير عن العلاقة التاريخية بين المشرق والمغرب العربي ونستشف عند بعض ومضاتها الخلفية لقطعة من حرب الخليج الأولى والقصيدة في حدودها الأخيرة ردّ صريح وواضح عن سؤال الوطن - تونس - بين الوطن العربي الكبير ذلك السؤال الذي ظل على مدى سنوات عديدة مركز إهتمام لدى النخبة

## المثقف على المستوى الفكري الأدبي

بغداد

عروس النهر

وسيدة الشعراء

ما زالت كالعادة

تروي للآتين حكاياتٍ عن ماضيها

ما زالت تحفظ أسرار السّنوات الأولى

وأنا ما زلتُ أرّدد من أعوام

أسماء شوارعها

شارع الخلفاء، الرّشيد، أبي الطيب المتنبي

ففاتحة القصيدة وقوف على المكان، عنده تبدأ لحظة  
الإندماج في الكون الداخلي وإذا كان الوقوف على الأطلال في  
الشّعير القديم بعثا وإحياءً للأحداث وشحذا للذاكرة فإنّ الشاعر  
في هذه الوقفة يتواصل ويستمرّ مع تدفق نهر رجلة الذي يشق  
بغداد فإذا هي على ضفافه عروس ممّا يُوحى بأجواء الحياة  
والجمال والبهاء منذ مطلع القصيدة

ثمّة في النهر تدفق وسيل متواصل، إنّ هذا التواصل  
سنرى صداه وصُوره في الآتي من القصيدة وخاصة في العلاقة  
بين (بغداد-العراق) و(القيروان-تونس) بل إنّ النهر يتحول بعد  
كلمات قليلة في هذا المقطع إلى شوارع وما الشوارع إلا سيل  
من الناس

إنّ ثنائية العروس والنهر تعبير عن دلالة الخصب بما فيها  
من رموز عن الجمال والماء وبما تُعبّر عنه عبر جدليّة المذكر  
والمؤنث وفي هذا الافتتاح ثمّة حضور واضح للشّعير باعتباره

من جملة المعاني الواردة وذلك عند قوله (سيِّدة الشعراء) وقوله أيضا (أبي الطيب المتنبي) ممَّا يؤكد الحضور المعلن للهاجس الشعري لدى الشاعر ووعيه المفضوح لعمله الإبداعي إضافة إلى الحضور الواضح للماضي في قوله مؤكدا على ديمومته عند ترديد كلمة (مازال) ثلاث مرات مع فعل المضارع

فمطلع القصيدة إذن اندماج في الماضي والحاضر وإنسياب مع التَّهر بكل ما فيه من سيلان وفيضان وخصب وحياء وجمال وكذلك بما في إيقاع خريبره من هدوء حيناً وهدير أحيانا كما سيأتي من تنوُّع في المعمار الشكلي بين التَّسق الفنِّي واللغوي المتراوح بين الفصيح والعامي من ناحية والمزاج بين الشكل الحر والعمودي وشعر الأغنية والشعر الذي يستلهم الأنماط السردية من إسترجاع وتذكر وإستئناف وخطاب وحوار وتضمين وغيره

أما زلت يا صاحبي نائما عن شواردها

أم شواهدها

وأنت الذي لم تحاول مقاما

على قلق كنت

أو قلقا

لا يهم

فكل الشواهد باقية

والمدينة تحكي شهادتها

أمّر على شارع المتنبي

مازلت إذن أتذكر أسماء الأحياء

وأسماء السّاحات

ساحة عنترة فالأعظمية

فالجسر فالكاظمية

يبدأ المقطع الثاني من القصيدة والوصل معا فيفصل نسق الخطاب من الحديث عن بغداد في صيغة المؤنث الغائب ليجعله في صيغة المذكر المخاطب وأما الوصل فيجعله بين أبي الطيب المتنبي الذي أورده عند آخر المقطع الأول وبين تضمينه لبعض مفردات قاموسه الشعري في هذا المقطع الثاني مما يفيد أنه بهذا التضمين إنما يتقمص شخصية المتنبي في بعض القصائد وهذا التقمص جاء مناسبا للصورة الشعرية التي تقوم هنا على استحضار مشهد مروره من شارع المتنبي في بغداد حيث أضحى ذلك الشارع هو الشاعر حيث تتجلى شاعرية المكان كأوضح ما تكون

إن مخاطبة أبي الطيب بقولة (يا صاحبي) تؤكد شعور الغربة في المكان والزمان أيضا، ذلك الشعور الذي ظل مُلازما للمتنبي في كثير من فترات حياته الممتلئة بالترحال والانتقال بين مدن وأماكن عديدة ومختلفة وإن معنى الصاحب يدل على الألفة والمداومة والرّفقة خاصة عند السفر وهي الحالة التي تتأكد عند قوله (أنت الذي لم تحاول مُقاما)

القصيدة جغرافيا أيضا

إن الحرص على ذكر أسماء الأماكن واضح فيها مثل الحرص الذي نقرأه في تفصيل الأماكن لدى الشاعر الجاهلي ذلك الذي ظلّ يحيا على ذكراها وهو ينتقل بين البوادي من حي إلى حي

كذلك قارئ هذه القصيدة إنما ينتقل من بغداد بساحاتها وشوارعها وأحيائها ونهرها وجسرها ومقاهيها وأزقتها وكنياتها ونهرها إلى تونس بقيروانها ولوزها وياسمينها

والجغرافيا حاضرة في كلمات عديدة من متن القصيدة  
التي تنقلب بالقراءة البصرية إلى خريطة الوطن العربي  
المترامي الأرجاء من المشرق والمغرب

القصيدة تاريخ كذلك

السيرة الذاتية للشاعر محمد الهاشمي بلوزة متداخلة مع  
الأزمنة العربية القديمة والحديثة

من أعوام كنت أسير  
إلى شاطئ الأعظمية  
أثر فوق المياه سلامي  
وأتلو تمائم أمي  
وأمضي إلى صاحب عند باب المعظم  
نمزج بالعرق المرّ وحدتنا  
ثم نقرأ ما قد كتبنا من الشعر  
في طالبات الإدارة والاقتصاد  
آه من طالباتك بغداد  
كنّ إذا اجتمعن حولي يسألنني  
عن مسائل في الإقتصاد  
أدوخ ولا يستجيب لساني  
فيضحكن في هرج ويقلن  
"خطيئة طالب عربي"  
عشرون عاما

وأنا الطالب العربي  
أسمع  
مازلت أسمع شَدو المقام العراقي  
أتلو على ولديّ عديّ وأوسان  
بعض الذي قد تعلمت منه  
زين الله جابك زين "  
"يا وردة النهريين  
مازلت  
حين أكنّ إلى زوجتي  
وتحاصرني الذكريات  
أغني لها  
مليان كل قلبي حجّي  
إلّمن أروحن وأشتجي -

إنّ سرد اليوميّات بالتفاصيل اليومية حاضر بوضوح في  
هذا المقطع وهي يوميات تنقسم إلى زمانين ومكانين، ففي  
الزمن الماضي بغداد وأثناء الزمن الحاضر تونس أما الأشخاص  
فهم المحيطون بالشاعر: الصاحب والطالبات في بغداد  
والزوجة والولدان في تونس ويظلّ المقام العراقي بما  
في أغانيه من شدو وشجن هو الرابط بين المكانين والزمانين  
دون إغفال لحضور الأمّ في الذاكرة عند شاطئ الأعظمية على  
ضفاف دجلة وما الأمّ إلا رمز للرابط الأصيل والتمتين بين  
المشرق والمغرب

إنّ شخصية الصاحب التي وردت في المقطع الأول كانت  
تعني أبا الطيب ثم أصبحت تدل على أحد الأصدقاء الذين

يجلس إليهم الشاعِر وهو شاعر أيضا لأنه قال فيه (ثمّ نقرأ ما  
قد كتبنا من الشُّعر) وهذه الشخصية سنجدُها كذلك في  
المقطع الأخير حيث يذكر اسمها وهو (رضوان) عندما يعود من  
تونس إلى بغداد ويسأل عنه

وأجىء وقد أزهَر اللوز في القيروان  
وفي تونس الياسمين  
أجىء لأتلو قصائد عشقي

ليس المجيء محدداً من تونس إلى بغداد أو من بغداد إلى  
تونس حيث ثمة تداخل في الأمكنة مثلما ثمة تدخل في الأزمن  
بين الحاضر الذي يتداعى رويدا نحو الماضي بتوالي الصُّور إلى  
أن تلوح صورة اللوز المزهر والياسمين لتعلن الحضور القوي  
وبنبرة أقوى للشعور الوطني عند تلاحق القافية بالأنثى

القول أضيق من فنون بياني  
وهوى بلادي ضاق عنه لساني  
ولقد علمتم أن لي في وصفها  
شعرا يفيض بأعذب الألحان  
ولقد علمتم أنّ شعري لو جرى  
مجرى حديث الصمّ والخرسان  
لكفاهم حلو الكلام ومّره  
وأزال عنهم حسرة الحرمان  
يا لائمي في حب تونس هل ترى  
عشق الدنان أحقّ أم عشق الحسان



عشق الحسان يا صديقي عبادة  
خيّرت عنها عبادة الأوطان  
وطني وقد آليت ألا أبيع  
لو ساوموني بجنة الرضوان

هذا المقطع تلاوة لعشق تونس كما قال الشاعر (أجيء  
لأتلو قصائد عشقي) والتلاوة فيها الجهر والتفديس من ناحية،  
وهي بيان واضح وقول فصل في قضية الانتماء القومي التي  
ظلت سنوات تتراوح بين ما بين المحلي الوطني وبين المدى  
العربي الأوسع

الشاعر يرى أنّ البُعدين ليسا بمتناقضين بل هما متكاملان  
غير أنّ المنطلق هو الوطن الأصلي ليشمل مداه الأقصى حدود  
الوطن العربي الأكبر

إنّ مثل هذه الفكرة تسمو بالقصيدة إلى أبعادها الفكرية  
بعدها تجلت عند ثناياها الأخرى البصمات الشخصية وهي  
لعمري من أهم خصائص النص الإبداعي الحامل لمختلف  
المستويات الفنية والنفسية والاجتماعية والفكرية وغيرها

ورضوان هذا  
صديقي الذي جئت أسأل دجلة عنه  
وأسأل عنه الأزقة  
أسأل عنه المقاهي  
وأبحث عن أثر من بقايا قصائده  
قيل لي منذ عام مضى للجنوب  
ولكنه لم يعد  
يا رفيقي أين أنت؟

ترى

أما زلت تذكرني أم تناءت بك السنوات؟

يرد هذا المقطع **إستئنافاً** للمقطع السابق وكأنه توليد من  
آخر كلمة فيه حيث يقول  
وطني وقد آليت ألا أبيع  
لو ساوموني بجنة الرضوان  
ورضوان هذا  
صديقي الذي جئت أسأل عنه دجلة عنه

عند هذا المفصل إذن تنزل نبرة القصيدة من وقع الشدة  
مع الحجاج والفخر والتحدّي والإعتزاز إلى وقع الألفة والحيرة  
والحزن والإنكسار وهو ما يمكن أن نسمّيه بالإيقاع الداخلي في  
نصّ القصيدة التي جرت على نسق القافية في المقطع السابق  
ثم نحت إلى منحى الكلام السّردي الموحى بما فيه من بساطة  
تعبيراً عن الحالة النفسية المنسابة التي تتسارع بعدئذ في قوله

يجيء الخريف على مهل  
وأزورك بغداد في كل عام  
أنا الهاشمي  
وريث النّبيين  
أتلو على العتبات كتابي

إنّ نبرة الإعتزاز بالذات واضحة في هذه الأسطر مع  
إعتمادها على المرجع الدّيني حيث بدت الأنا متوشحة بنرجس

كثيف لعل سببه إرادة فرض الذات هنا وهناك عند إستهزاء  
الطالبات في بغداد بحاله في قوله

أدوخ ولا يستجيب لساني  
فيضحكن في هرج ويقلن  
"خطيئة طالب عربي"

أي يقلن "مسكين هذا الطالب العربي" تعبيرًا منهنّ على  
السخرية والإستهزاء وقد لجأن إلى هذا التعبير الشعبي  
العراقي ربما دلالة وغنجا! وإذا كان آخر القصيدة فيه نبرة  
التحدي والفخر فإنه يعود إلى البدء قائلًا لبغداد

وأنت كما أنت  
سيدة الماء والنخل والشعراء

فخط القصيدة دائري حيث بدأ بقوله  
بغداد

عروس النهر  
وسيدة الشعراء

ثم أنهى القصيدة بنفس الصورة والكلمات تقريبا وبالتأكيد  
على شاعرية بغداد

هذا المكان -بغداد- قد ورد ذكره في مقطوعة شعرية  
تعود إلى أواخر القرن الأول الهجري أرسلها عبد الرحمان بن  
أنعم المولود سنة 74 للهجرة وتوفي سنة 161 والذي يمكن

أن يعتبر من أول الشعراء العرب الذين نشأوا وترعرعوا  
بالقيروان وقد أرسلها من بغداد قائلاً

ذكرت القيروان فهاج شوقي  
وأين القيروان من العراق  
مسيرة أشهر للعيس نسا  
على الخيل المضمرة العتاق

إذن طلباً للعلم رحل ذلك الفتى عبد الرحمان بن أنعم  
الذي سيكون له شأن بعد ذلك في الحياة العلمية والسياسية  
في عهد الدولة الأموية ثم في عهد العباسيين الأول مؤكداً على  
الصلة المتينة بين المغرب والمشرق. هذه الصلة والعلاقة  
الوثقى نقرأ صداها من جديد في هذا العصر مع الشاعر  
الهاشمي بلوزة في قصيدته هذه وهو الذي رحل هو أيضاً إلى  
العراق لمواصلة تعليمه العالي في إحدى الكليات العلمية  
ببغداد مع مطلع الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي حيث  
يمكن أن تجري مقارنة بين القصيدتين من حيث أنهما قيلتا في  
نفس الظروف تقريباً رغم مرور قرون عديدة تفصل بينهما  
لكن المكان جعل القصيدتين مع المناسبة تنهلان من نفس  
الموضوع حتى لكأنهما تسيران في خطين متوازيين محمليتين  
بنفس المعاني من ذلك

أولاً: ذكر القيروان وبغداد حيث ورد في قصيدة عبد

الرحمان بن زياد بن أنعم قوله

ذكرت القيروان فهاج شوقي

وأين القيروان من العراق

وقد أورد الهاشمي بلوزة بغداد في مفتتح القصيدة

بغداد

عروس النهر

وسيدة الشعراء

مازلت كالعادة

تروي للآتين حكايات عن ماضيها

ثم يُورد القيروان في المقطع الرابع عند قوله

أجىء وقد أزهز اللوز في القيروان

وفي تونس الياسمين

أجىء لأتلو قصائد عشقي

ثانياً: إستحضار أفراد العائلة عند الشعارين ممّا يجعل  
القصيدتين موشّحتين بالمناخ الحميمي الخاص وهذا ما يصبغ  
عليهما حالة المعاناة الصادقة في الغربة عن الأوطان حيث  
يقول عبد الرحمان بن زياد

فبلغ أنعما وبني أبيه

ومن يرجى لنا وله التلاقي

أما الهاشمي فيحن إلى الزوجة قائلاً

مازلت حين أكن إلى زوجتي

وتحاصرني الذكريات

أغني لها

ويذكر حنينه إلى ابنه أيضاً قائلاً

مازلت أسمع شدو المقام العراقي

أتلو على ولدي عدي وأوسان

بعض الذي قد تعلمت منه

فإذا كانت القصيدتان تتشابهان في موضوع الحنين إلى الأوطان فإيهما تؤكدان على العلاقة المتينة بين المشرق والمغرب أيضا، وإذا كانت قصيدة عبد الرحمان بن أنعم تندرج ضمن غرض الشعر العربي القديم القائم على وصف الرحلة والراحلة فإن قصيدة الهاشمي تعبر عن خصائص الشعر العربي الجديد الذي تتداخل فيه الأغراض والأشكال والذات والموضوع

فالقصيدتان مثال واضح عن تطور الشعر العربي في تونس بما فيهما من صدق وفن وإضافة

## فصل من كتاب الذكريات

شعر: محمد الهاشمي بلوزة - تونس

بغدادُ

عروس النهر

وسيدة الشعراءِ

مازالت كالعادةِ

تروي للآتين حكايات عن ماضيها

مازالت تحفظ أسرار السنوات الأولى

وأنا مازلت أرّدد من أعوامٍ

أسماء شوارعها

شارع الخلفاء، الرشيد، أبي الطيب المتنبي

.

أما زلت يا صاحبي نائما عن شواردها

أم شواهدها

وأنت الذي لم تحاول مُقاما

على قلبي كنت

لا يهمّ

فكل الشواهد باقية

والمدينة تحكي شهادتها

أمرُّ على شارع المتنبي

ما زلتُ أتذكر أسماء الأحياء

وأسماء الساحات  
ساحة عنتره فالأعظمية  
فالجسر فالكاظمية  
من أعوام كنت أسير  
إلى شاطئ الأعظمية  
أثر فوق المياه سلامي  
وأتلو تمائم أمي  
وأمضي إلى صاحب عند باب المعظم  
نمزج بالعرق المر وحدثنا  
ثم نقرأ ما قد كتبنا من الشعر  
"في طالبات "الإدارة والاقتصاد  
آه من طالباتك بغدادُ  
كن إذا ما تجمعن حولي يسألنني  
عن مسائل في الاقتصاد  
أدوخ ولا يستجيب لساني  
فيضحكن في هرج ويقلن  
"خطية طالب عربي"

عشرون عاما  
وأنا الطالب العربي  
أسمع  
ما زلت أسمع شدو المقام العراقيّ



أتلو على ولديّ عديّ وأوسانُ  
بعض الذي قد تعلمت منه  
زين الله جابك زين "  
1"يا وردة النهرين  
ما زلت  
حين أكنّ إلى زوجتي  
وتحاصرني الذكريات  
أغني لها  
مليان كل قلبي حجي "  
2"إل من أروحن واشتجي

أجىء وقد أزهر اللوز في القيروان  
وفي تونس الياسمينُ  
أجىء لأتلو قصائد عشقي

القول أضيق من فنون بياني  
وهوى بلادي ضاق عنه لساني  
ولقد علمتم أنّ لي في وصفها

---

1

2

شعرا يفي بأعذب الألحان  
ولقد علمتم أنّ شعري لو جرى  
مجرى حديث الصمّ والخرسان  
لكفاهمو حلو الكلام ومزّه  
وأزال عنهم حسرة الحرمان  
يا لائمي في حب تونس هل ترى  
عشق الذنان أحق أم عشق الحسان  
عشق الحسان يا صديقي عبادة  
خيّرت عنها عبادة الأوطان  
وطني وقد آليت ألاّ أبيعهُ  
لو ساوموني بجنة الرضوان.

ورضوان هذا  
صديقي الذي جئت أسأل دجلة عنه  
وأسأل عنه الأزقة  
أسأل عنه المقاهي  
وأبحث عن أثر من بقايا قصائده  
قيل لي منذ عام مضى للجنوب  
ولكنه لم يعد  
يا رفيقي ترى أين أنت  
ترى

أمازلت تذكرنني أم تناءت بك السنواثُ

يجيء الخريف على مهل  
وأزورك بغداد في كل عام  
أنا الهاشمي  
وريث النبيّن  
أتلو على العتبات كتابي  
وأنت كما أنت  
سيدهُ الماء والنخل والشعراء